

## الفصل الثالث عشر تعليم القيم والأخلاق

تاليا عراوي\*

ملخص: تعرض الورقة أولاً لمحة موجزة عن أهمية دور الفلسفة الأخلاقية في التربية، ثم تتناول تجربة شخصية في تدريس الفلسفة الأخلاقية في مدرسة الانترنتاشونال كولدج. ارتكزت الاولويات في تدريس مادة الفلسفة الاخلاقية حول تفعيل الرؤية المستقبلية للطالب ودفعه لاكتشاف نفسه بكل ما فيها من آراء ثقافية متنوعة، والعمل على تحضير الطالب لكي يكون منفتحاً ومستعداً لتلقي المواقف الجديدة. وتمحورت الفكرة الاساسية في هذه التجربة حول آلية استخراج القيم من المناهج، فكان الهاجس الذي يشغلني هو تحديد نقاط معينة استطيع بها الوصل بين البرنامج المقرر والقيم التي أردت استنباطها. وكان تركيزي بشكل خاص على القيم الاساسية كالصدق والامانة واحترام الآخر والمسامحة والعمل على تقليص التصرفات غير المسؤولة.

### أولاً: أهمية دور الفلسفة الأخلاقية في التربية

قد تكون الفلسفة أمّ المعارف ولكنها أيضاً توأم الأخلاق وأبجدية التربية الشاملة. منذ البدء اعتمد الفلاسفة القدامى على أسلوب الحوار؛ فقد كان سقراط يدور في شوارع أثينا يسأل الناس ويسمع من الناس، كان يفتش عن المعرفة في نفسه وفي غيره . اتهم سقراط بإفساد عقول الناشئة وحكم عليه بالموت ، فأنهى الفيلسوف العظيم أيامه بشرب السم .

لقد ارتاب الطغاة الأثينيون من طريقة سقراط " الجدلية " التي كانت تركز على فكرتين أساسيتين هما الآن أساس كل ما يتعلق بالفلسفة والأخلاق:

---

\* ماجستير في الفلسفة، الجامعة الاميركية في بيروت، ١٩٩٦. رئيسة دائرة الفلسفة في الانترنتاشونال كولدج.

"أعرف نفسك" و"إن الحياة التي لا تكون قائمة على المحاسبة والمساءلة في المبادئ والقيم والأخلاق ليست جديرة بأن تحيا."

الحوار البنّاء والجدل الموزون والانفتاح الفكري هي أسس التربية الرائدة التي تركز على ما طالب به سقراط بتحويل النفس بالطريقة المثلى، ليس بوضع قوة النظر فيها إذ إنها تملكها، بل بالتيقن من كونها تنظر بالاتجاه الصحيح. للتربية قوة خاصة ومميّزة ترفض بها أسلوب التلقين "الببغائي" الآلي، وتنشد أسلوباً "تثقيفياً" شفافاً ومرناً مع تكريس جذري للقيم الأخلاقية بكل ما فيها من تفهم وقبول للآخر، إذ يصبح التطور "جوهرًا" يتدرج بانتقال متقن من الحيز الفكري إلى الحيز العملي، إذ إن الرؤية السليمة تقود إلى ممارسات سليمة. منذ أيام سقراط وروسو وكانط حتى يومنا هذا، كانت التربية، وما زالت، طرحاً أساسياً من طروحات المفكرين، فلا يمكن قيام مجتمع سليم من دون أن تكون التربية في أولوياته الرئيسية. فالمجتمع كتلة حية نواتها الفرد. و الجيل الجديد له أفضلية الرعاية بالثقافة الشاملة والرؤية الصافية للأمر.

إن الاهتمام القوي بتعليم الأخلاق ضرورة ملحة. الأخلاق والعلم حقيقتان متلازمتان وحيويتان، فالعلم دون توجيه أخلاقي عميق يقلب المعرفة البشرية إلى مجموعة ردائل. في هذه النقطة بالذات يبرز دور المربي الحقيقي مستوحياً أفكار سقراط التي تشدد على خلق المربي للحوافز الفكرية والابتعاد عن التلقين مع إيمان راسخ بأن القدرة على التمييز بين الخير والشر تكمن في عقل الإنسان. فالمربي كما يصفه سقراط شبيه "بذبابة الحودي" التي تزعج الآخرين لتجبرهم على الخروج من خمولهم الفكري أو كالقابلة التي أكثر ما يشغلها هو خلاص النفس". تطرح أمامنا حديثاً قضايا جديدة وملفات معقدة كلها تساؤلات تجبرنا على أن نعيش في مفارق طرق تحتاج مواقف خاصة وأجوبة دقيقة. قضايا مستجدة تطرح نفسها بإلحاح للمناقشة ضمن اعتبارات (considerations) واضحة للأخلاق والدين والقانون والاقتصاد وغيرها. من هذه القضايا القتل الرحيم (euthanasia) والإجهاض والاستنساخ (cloning) واللاعنف والعولمة وقوننة الفضائيات وأخلاقيتها، إلخ ... أسئلة كثيرة ووجهات نظر

متعددة مثيرة للجدل تبعاً لمعتقدات الأشخاص المختلفة. و البحث في هذه القضايا ليس مجرد تمارين في العبيئية ، إنه حوار أو جدل تثقيفي يجعل الإنسان مدركاً للأسباب الرئيسية التي هي وراء موقف ما وما يترتب عنه . ليس من الضروري اتفاق الفرقاء على موقف موحد ، بل الأهم من ذلك هو الشعور الرائع الناتج من التفهم والاستيعاب والانفتاح على مختلف الآراء.

من خلال تدريسي لمادة الفلسفة ركزت على فلسفة الأخلاق التي تقدم أسلوباً مميزاً في التعامل مع هذا النوع من المواضيع المطروحة . مثلاً، اكتشفت أن المعرفة المبنية على إشراك الطلاب بالمناقشة لها نتائج إيجابية جداً. فهي خيط رفيع يمتد من أعماقهم إلى البيئة التي حولهم ، فكل اهتزاز لهذا الخيط الرفيع يقود شرارات مضيئة تومض في العالم الداخلي لتنتقل إلى العالم الخارجي . كانت أولوياتي تتمحور حول: (١) تفعيل الرؤية المستقبلية للطالب ودفعه لاكتشاف نفسه بكل ما فيها من معتقدات وتطلعات وآراء ثقافية متنوعة . (٢) العمل على تحضير عقل الطالب لكي يكون منفتحاً ومستعداً لتلقي المواقف الجديدة كلها دون إحراج بل بدهشة مثمرة. لقد أثبتت الأبحاث في السيكولوجيا الإدراكية (*cognitive psychology*) أن هذه الطريقة هي المثلى لتعليم الطالب.

أثناء طرح مواضيع شائكة وعصرية ومثيرة للجدل ، يهيئ المدرس فرصة لإلقاء الضوء على أمور لا بد من معرفتها في عالم متسارع يزخر بالأحداث كالاستنساخ والقتل الرحيم وأطفال الأنابيب (*test tube babies*) واللاعنف والإعدام الخ ... الطروحات الجديدة تتطلب من الطالب معرفة وإن سطحية بوجهة نظر ثقافات مختلفة. من دون تلك المعرفة المبدئية يصبح من الصعب على الطالب تقبل تلك الطروحات وتفهمها . هنا يأتي الدور التالي للمربي وهذا الدور يكون في إطلاعه بأسلوب لطيف وحازم في آن، أن وجهة نظره في أي موضوع ليست الوحيدة المعتمدة في العالم أجمع. المواضيع الجديدة والمشاكل الأخلاقية القادمة من طبيعة عصرنا الجديد هذا، تتفاوت في قدرتها على إثارة اهتمام الطالب وذلك حسب طبيعته فيعمق معالجة الواحدة أكثر من الأخرى ويبحث عن إجابات ترضي قناعاته.

مع بروز تكنولوجيا متسارعة وتقنيات حديثة برزت أيضاً مشاكل جديدة تقف حائلاً أمام التحديد الفعلي لغاية التربية ولنمو شخصية أخلاقية سوية يريدها الأهل وتنشدها المدرسة . تطوّرات حديثة تبدو كسلاح ذي حدين . هنا دور المهارة التربوية التي تتسم بالدقة والمرونة والقسوة المدروسة في التعامل . يحتاج المعلم إلى تفهم وحذر شديدين في التكيف مع أدوات هذا العصر وإلا انقلبت عائقاً أمام تقدّم الجيل الجديد بل وأحياناً تتحوّل خطراً مجهولاً قد يؤدي إلى تحوّلات غير مرغوبة في سياق تكوين الطالب الثقافي والأخلاقي . إضافة إلى كلّ ذلك يواجه المعلم حالات نفسية مفاجئة كتطرّف من نوع خاص ( راديكالية *radicalism* , انفرادية *individualism* ) يتسم به بعض التلاميذ كالإحساس بالاستقلالية والتفوق وكأنّ هدفهم الخاص في الحياة هو تحقيق الذات، أي التركيز على "الأنا" فقط . في غياب مقاييس موضوعية وكونية (*universal values*) تصبح تطّعات الأجيال خاصة وفردية وأنانية ويذوب الحسّ الإنسانيّ تدريجاً من حولنا. أمام هذا الوضع لا بدّ من رؤية شمولية في العمق تفرز قوانين ونظريات وتكون سلاحاً لمحاربة الأمر الواقع الموجود والمرفوض في آن واحد، إذ ليس هناك مجال لليأس والانهمامية لمن قرّر رعاية النشء الجديد.

### ثانياً: تجربتي في تدريس الفلسفة الأخلاقية: "فكر وقضايا"

توزعت تجربتي في التربية الأخلاقية في مجالات ثلاثة، أولها وأوسعها تدريس الفلسفة الأخلاقية، ثانيها مشروع مع الصليب الأحمر الدولي، وثالثها ورش عمل توليت القيام بها لبعض الاساتذة ومدراء المدارس. ولئن شمل مجال التدريس برامج متعددة، فإن ابرز هذه البرامج، وهو ما سيجري التركيز عليه، منهج خاص اوكلت الي ادارة الانترناشونال كولدج وضعه لصفوفها التي تتبع المنهاج الاميركي، أي غير الخاضعة لمناهج رسمية. على ان يكون لهذا المنهج اتصال بمادة الفلسفة دون ان يكون دراسة خالصة فيها، اي مقارنة الاشياء دون الخوض فيها، وان يتوزع هذا المنهج على صفوف ثانوية ثلاثة. كانت فرصة

لي كي اعالج مع الطلاب مواضيع اجتماعية وفلسفية وخلقية واساعدهم على اكتشاف القيم والدوافع التي تجعلهم يتخذون موقفاً ازاءها، لذلك اطلقت على هذه المادة اسم "فكر وقضايا" (Thought and Issues).

مادة "فكر وقضايا" تختلف عن باقي المواد المعطاة في انها ليست غاية وهدفاً بحد ذاتها ولا مجرد تذكرة تخول الطالب النجاح والارتقاء إلى مراحل أعلى. إذ أنها بالاضافة إلى تزويد الطالب بمعلومات متنوعة في مواضيع معاصرة وحساسة، فهي أيضاً وسيلة لتنمية الحس النقدي والذهني المفتوح الذي هو اساس احترام اراء الاخرين والاستعداد لتقبلها بطريقة بناءة ومسؤولة .

اما اختيار مواضيع المادة فارتكز على عدة اعتبارات وهي :

- ما هي القضايا المعاصرة التي تستحوذ على اهتمام الطالب وفضوله ؟
- ما هي القضايا التي لها علاقة بالحياة اليومية الواقعية والتي من المهم مناقشتها لكونها لم تناقش في أي من المناهج المعتمدة والتي من الممكن مناقشتها من خلال اعطاء الطالب فرصة للتفكير واعطائه ثقافة شاملة عن افكار مفكرين وفلاسفة سبق ان تطرقوا اليها .
- ضرورة تنوع المواضيع مع المراحل المختلفة في الحياة، وقد اعتمدت في ذلك على تجربتي وملاحظتي وانشغال الطلاب بأفكار وقضايا جديدة في كل مرحلة من المراحل التعليمية<sup>(١)</sup>.

في المرحلة الاولى، مواضيع اخلاقيات الطب والبيولوجيا الحديثة: قضايا مثيرة للقلق والجدال للجميع على اختلاف اعمارهم وخبراتهم<sup>(٢)</sup>. في المرحلة الثانية تتكون عند الطلاب ميول سياسية وافكار اجتماعية ثورية واهتمامات تتعلق بالمجتمع المدني . فكانت مادة " فكر وقضايا " تعالج مواضيع العنف واللاعنف وحكم الاعدام والعدالة الاجتماعية وحقوق الانسان والضمان

<sup>(١)</sup> هذا لا يعني انه مع انتقالهم من مرحلة الى مرحلة تنعدم اهتمامهم بالامور السابقة، بل انه تنبع أيضاً اهتمامات اخرى بالاضافة اليها.

<sup>(٢)</sup> لذلك فان الجامعات، كالجامعة الاميركية (AUB) على سبيل المثال تعطي صفوفاً في الاخلاق التطبيقية (practical ethics) تعالج تلك القضايا. (راجع مقالة د. مصطفى خوجلي في هذا الكتاب).

الاجتماعي والمجندين الاطفال والاضاع البيئية في السجون. في المرحلة الثالثة كان الطلاب يبدون اهتماماً بأمور ذات منحى فلسفي وتجريدي ووجودي. فكانت مادة "فكر وقضايا" تتمحور حول قضايا وجودية (*existential*) وميتافيزيقية (*metaphysical*) وتتضمن الحرية والحياة والموت والروح والنفس والعبثية وغاية الوجود والاديان ووجود الله .

لم تقتصر الصفوف على عرض افكار المفكرين والفلاسفة كأفكار كانط (*E. Kant*) وميل (*J.S. Mill*) وهم من أهم رواد فلسفة الاخلاق، او سنجر (*P. Singer*) الذي عالج مواضيع الاخلاق العملية او افكار الفيلسوف رولز (*J. Rawls*) ونظريته في العدالة الاجتماعية او افكار ثورو (*H.D. Thoreau*) حول اللاعنف أو أفكار سارتر (*J.P. Sartre*) حول الوجود او تولستوي (*L. Tolstoy*) حول وجود الله، بل تعدتها الى اطلاق خيال الطالب و حريته في النقد البناء والتعبير.

افكار الفلاسفة، بنظري، لا يجوز تجاهلها ولو كان الصف مبنياً على الجدل وعرض الاراء. فكنت اعرض الافكار الرئيسية والمفاهيم والمسلمات التي تحدث عنها هؤلاء الفلاسفة عبر تجسيدها بأمثلة مستقاة من الواقع، ولكني كنت حريصة على الا يكون عرض هذه الاراء يتسرب الى عقول الطلاب بأسلوب جامد يلغي عندهم فرص الخيال والتفكير والنقد، بمعنى آخر، الا يقتبس الطلاب افكار الفلاسفة بل ان يستنبروا بها ليبنوا افكارهم على اسس منطقية ومفاهيم سليمة.

مادة "فكر وقضايا" تعالج الطب والاخلاق وترتكز على استيعاب الطالب لمعنى الحياة، والمسائل المطروحة فيها معقدة لانها تتعلق "بالانسان". لذلك، تظهر أسئلة كثيرة كالتالية: متى تبدأ الحياة؟ هل يعتبر الجنين طفلاً؟ هل لديه القيمة نفسها التي نعطيها للمولود؟ هل انقاذ حياة الطفل اهم من انقاذ حياة رجل في الخامسة والثمانين من عمره؟ هل يعتبر الاجهاض قتلاً، والاستنساخ تجارة، والقتل الرحيم جريمة؟ منذ ايام سقراط كانت المسائل الاساسية في الفلسفة هي حرصها على اعطاء مبررات عقلانية ومنطقية للمبادئ والمعتقدات التي تنبع منها المواقف إزاء قضية ما. هذا هو الاساس الذي ترتكز عليه مادة "فكر وقضايا". ان لم تكن المبررات المعطاة منطقية وواضحة ومقبولة، واذا

كانت قابلة للنقد بسهولة تامة فإنه باستطاعتنا ان نقول ان القرارات التي تنبع عنها غير سليمة . واذا كانت المبادئ والمعتقدات غير واضحة بالمضمون او بالشكل فلا يمكن ان تكون اساساً كافياً لاتخاذ قرارات مهمة تتعلق بحياة الانسان.

معالجة مواضيع الاخلاق في الطب تتطلب ارادة وقدرة على التساؤل وتحدي المعتقدات الاساسية والتوصل الى معرفة ان كانت هذه مبررة ومقبولة . عندما اشعر ان للطلاب مواقف حازمة تجاه امر ما، اطرح عليهم اعتبارات اخرى تزيد القضية تعقيداً وتدخل عليها ابعادا أو اعتبارات جديدة وذلك لاستفزاز عقولهم واجبارهم على التفكير بها مرة اخرى بتجرد وموضوعية وانفتاح على المواقف الاخرى المغايرة لمواقفهم. ان الطالب، بنظري، يستطيع ان يقيم معتقداته الاساسية بطريقة اعمق عندما يحاول ان ينظر اليها من خلال ظروف مغايرة وفترات زمنية متفاوتة الابعاد. قد تتغلب رؤيته لنظرياته القديمة فتصبح امامه اكثر قساوة وعناداً . هذا المسار الفكري المختلف اشبه بصدمة كهربائية تجعل الطالب يعي الدرجة المناسبة التي يمكن له ان يكون فيها متشبثاً باعتقاداته وقد يتأكد من ضرورة اعادة النظر في امور كثيرة ليس بشرط تغييرها بل لفهمها بطريقة اعمق.

يبدأ الطالب بإعطاء رأيه بإصرار وحزم مبرراً ذلك أنه من قناعاته الاخلاقية او الدينية او الايديولوجية. وكنت احاول ان اجعل الطالب يرى سبب صواب اعتقاداته وأتمنى عليه ان يعطي شرحاً وتبريراً لقناعاته تلك. كنت احاول ان ارشده الى الجوانب المتعددة لموضوع ما مثل استنساخ البشر او اجراء التجارب على الجنين ليصل الى قراره الخاص . وهكذا تدور الدقائق بين الاسباب والمبررات التي تعطى لدعم موقف اخلاقي او نقده فيصبح النقاش اكثر تنظيمياً وطريقة الحوار ممكنة ومنطقية. ان طريقة التعليم المثلى<sup>(٢)</sup> بنظري هي التي من خلالها تحصل التغييرات في الاحاسيس أو في الاخلاق او في التفكير.

<sup>(٢)</sup> ان كل برنامج يتعلمه الطلاب يتضمن بطبيعة الحال المواد المطلوب معرفتها او التمرس بها لاتقانها وهو معرض لان ينسى البعض أو الكثير مما تعلمه فيما بعد إذا لم تكن من صميم اختصاصه وعمله المستقبلي. إلا ان كل برنامج يجب ان يتخلله إشباع للطلاب بأفكار العدل والتسامح ومبادئ احترام حقوق الغير واللاعنف وغيرها من الموضوعات الاخلاقية بغية تهذيب شخصيته. فهذه الامور تبقى راسخة على مر الزمن ويكون لها الاثر الاكبر في تصرفاته إذ ينخرط في معترك الحياة مواطناً فعالاً.

فيما يتعلق بالاحاسيس فإن التعليم يساعد في تغيير بعض المشاعر تجاه مسألة ما او خلق البعض منها. وفيما يتعلق بالاخلاق، يساعد التعليم على تكوين الشخصية الاخلاقية (*moral character*). و فيما يتعلق بالتفكير، فإن التعليم يساعد على تطور عملية التفكير والنقد السليم . من اهم المعتقدات التي اعمل على اساسها في تدريس مادة الاخلاق في الطب والبيولوجيا الحديثة هي ان المعرفة التي تبقى مع الطالب بعد التخرج هي نتيجة التعلم من خلال "الاكتشاف" لا التلقين. على سبيل المثال، عندما ابدأ بشرح واجبات الطبيب وقسم ابقراط (*Hippocratic Oath*) ابدأ دائماً بطرح السؤال: "ما هي برأيك الخصال الضرورية التي على الطبيب ان يجسدها حتى تختاره طبيباً لك؟" هنا يبدأ التلاميذ بالتفكير واقتراح بعض الخصال التي هي باعتقادهم ضرورية ومن ثم تكتب على اللوح وتناقش بطريقة بعيدة عن التكلف خالية من قلق الطالب من ان يكون ما ادلى به من اجابات في غير محلها أو ربما مرفوضة. وفي مرحلة لاحقة اطلب من كل طالب ان يخبر زملاءه عن بعض الحوادث التي سمع عنها أو عايشها هو أو أحد افراد عائلته والتي تظهر ان الطبيب ليس دائماً مخلصاً لمهنته أو عكس ذلك. وكم يكثر حماس الطلاب وشعورهم بالاهمية والاعتبار الذاتي عندما كنت اطلب منهم تحضير رسائل لادارة المستشفيات يعبرون فيها عن رأيهم آملين ان يحصلوا على ردة فعل. فبالإضافة إلى اعطائهم الفرصة للتعبير عن آرائهم كنت أيضاً اعطيهم الفرصة كي يكونوا مفكرين فعالين في المجتمع (*engaged intellectuals*) وهكذا كان الصف، بالإضافة الى كونه صالة للحوار البناء، مجلساً تؤخذ فيه القرارات على امل اعتبارها.

وعندما يعرض الطالب تجاربه كانت تكثر ردات الفعل ويصبح النقاش دافئاً مفعماً بالحماس ويبدأ الطالب الخجول بإعطاء آرائه بثقة وجرأة . كان دوري في ذلك يقتصر على المحرك الخفي في خلق الحماس بين الطلاب. وفي فترة لاحقة ابدأ في سرد حادثة مغايرة فيشعر الطالب بنوع من الراحة فيعرض تجاربه او تجربته بهدوء وفرح، فهو قد اكتسب معلومات جديدة نتيجة جهده واكتشافه الخاص لا نتيجة تلقين بارد. هنا أيضاً يكون دور المربي اشبه بدور



الطبيب الذي لا يخلق الحياة بل يساعد على صحة الجسد. وهكذا المربي الذي لا يضع المعرفة في عقل الطالب بل يساعد العقل على ان يلتمسها بنفسه. فدوري لم يكن رسم السبل للاكتشاف الطوعي للطلاب بل مساعدتهم في عرض الافكار الاساسية لعدة فلاسفة سبق ان تناولوا نظريات متشابهة، مع العلم ان عرض الافكار هذا لم يكن اقل نشاطاً واهل عملاً من التعلم من خلال "الاكتشاف" الذاتي اذ ان الاستاذ بطريقته الخاصة يجعل من الطالب اكثر من مستمع يمتص المعرفة بل يجعله تلميذاً متعاطفاً.

هكذا، كان تدريسي لهذه المادة مبنياً على ان الاستاذ يساعد الطالب في اكتشاف ارائه والاسباب التي هي وراء ارائه وبالتالي تفهمه لاراء الاخرين. ولكن طريقة التعلم شبه الذاتي هذه تتطلب اهتماماً من الطالب في المواضيع المطروحة. وعندما يكون الاهتمام غير موجود، كانت اولوياتي تكمن في طرح المسألة بطريقة عملية وواقعية لأستثير اهتمام الطالب ورغبته في المشاركة. هذا كله يعتمد اولاً وأخراً على اسلوب الاستاذ وعلى براعته إذ يبني تعليمه على القناعة ان العلم يكتسب عندما يصبح الطالب جزءاً مهماً في عملية التعلم.

هنا اجد نفسي غير مقتنعة بنظرية الفيلسوف اليوناني ارسطو التي طرحها في بداية كتابه "الاخلاق" حيث قال ان المواضيع المتعلقة بالاخلاق والسياسة<sup>(٤)</sup> يجب الا تدرس للطالب الشاب اذ ينقصه التجربة والاتزان العاطفي والجدية العميقة. فتجربتي خلال السنوات الثلاث كانت اثباتاً صريحاً وواضحاً ان اعتقاد ارسطو ليس في محله. على سبيل المثال، عندما عرضت موضوع القتل الرحيم (euthanasia) بدأت بطرح اسئلة عديدة بهدف التأثير في الطلاب وجعلهم جزءاً من الموضوع: من هو الشخص المخول وضع حد لإنهاء حياة شخص اخر في حالة صحية سيئة شبه ميؤوس منها؟ هل يملك المريض الحق في ان يختار وضع حد لحياته ام ان هذا القرار يعود لافراد عائلته، أم هو قرار طبيبه، ام القانون؟ تواجه

(٤) تجربتي في تدريس المفاهيم السياسية والقضايا المتعلقة بالدولة اثبتت عمق تفكير الطالب عندما يكون موجهاً بالاتجاه الصحيح. على سبيل المثال، مسألة الدولة وواجب احترام قرارات الدولة من اهم المواضيع التي طرحت ولا زالت تطرح في فلسفة السياسة (political philosophy): هل يجب الانصياع للقانون حتى لو كان ضد قناعات الشخص مثل ما حصل مع الفيلسوف سقراط، ام هل يجب ان يتبع الانسان ما يمليه عليه ضميره حتى لو كان مغايراً لقانون الدولة كما في فكر الفيلسوف الامريكي ثورو (H.D. Thoreau).

الطلاب عدة مفارقات اذ ان هناك حالات تضع الموقف الذي يمليه الضمير في مواجهة الموقف القانوني، فهناك من يقول بوجوب طاعة القانون مهما كانت القناعة الشخصية، وهناك من يقوم بما يمليه عليه الضمير والقناعات الشخصية. وكنت اركز هنا على وجوب معالجة الموضوع وعدم اتخاذ امر تعقيد المسألة حجة للتهرب من اتخاذ المواقف الاخلاقية. كان الطلاب يعطون اجوبة عديدة مثيرة للجدل، تعتمد على فرضيات الطالب وعلى الافكار التي يعتبرها حتمية لا جدل فيها وعلى القيم التي يؤمن بها ويعمل على اساسها. و هنا من الضروري ان يعطي الطالب الاسباب التي جعلته يتشبث بموقف ما حتى يفهم ما جعل زملاءه مناهضين لآرائه. وهنا يعي الطلاب أن وراء كل موقف من المواقف قيما معينة و مبادئ اساسية تتحكم به و ليس من الضروري ان يكون الجواب واحداً بين الطرفين، لكن هذه المواقف المتناقضة تخلق نوعاً من التوتر الفكري يمهّد للتعاطف مع آراء الغير وتفهم الاسباب التي وضعتهم في الطرف الاخر من الجدل.

في بداية عرض الموضوع وعند اول نقاش تبين ان الطلاب غافلون عن "الاعتبارات المناسبة"<sup>(٥)</sup> (*relevant considerations*) التي لعبت دوراً مهماً في اخذ موقف ما دون اخر و غافلون ايضاً عن اعتبارات اخرى هي اساسية عند الفريق الاخر. عند ذلك، كان النقاش يتحول فجأة الى معركة فكرية حيث يجهد بعض الطلاب بإبراز اخطاء غيرهم وإثبات وجهة نظرهم. وبعد مناقشة من هذا النوع، اعود بدوري لأصنف الاعتبارات المناسبة لهذه القضية وشرح هذه الاعتبارات وعرضها بوضوح على اللوح. هنا يستوعب كل طالب رأي الاخر كما يغير بعض الطلاب آراءهم التي كانوا متشبثين بها حول موضوع القتل الرحيم ومن له الحق في ان يقرر ذلك ولماذا. فأنا مقتنعة انه ان كان النقاش مبنياً على المسؤولية والانفتاح والموضوعية (وهي امور يتعلمها الطالب من خلال المادة)، فالنتيجة تأتي متناغمة في مجتمع مدني واحد (*community*) يعيش الكل تحت ظلاله وهذا ما يجعل التوتر اقل والتفاهم سيد الموقف.

(٥) كما يعتبر الفيلسوف الاميركي جون رولز John Rawls في كتابه نظرية العدالة Theory of Justice، ان هذه الاعتبارات هي ضرورية وأساسية ولا يجوز لأحد تبني موقف ما من دون أخذها بعين الاعتبار.

في المجمل، ان الامور او القضايا الاخلاقية معقدة لانها تتضمن او تتطلب واجبات (*obligations*) واعتبارات مختلفة لكل منها مضمون مميز، وكل منها مغرية بطريقة او باخرى وكل منها لا بد من اخذها بعين الاعتبار. وقد تتناقض بعض هذه الاعتبارات مع اعتبارات اخرى. على سبيل المثال، كان بعض التلاميذ يصرون على كون قدسية الحياة (*sanctity of life*) الاعتبار الاساسي، ولم يقبلوا أية اعتبارات اخرى تتجاوزها. في حالات كهذه، يكون القرار بسيطاً جداً، خالياً من الصراع الفكري: القتل الرحيم مرفوض، ولا مجال للمناقشة. اما الفريق الاخر، فبالاضافة الى احترامه قدسية الحياة، يفكر بهواجس اخرى حول هذه الحياة التي ربما تجعل المريض مخلوقاً يتخبط بين الحياة والموت في حالة تجرده من الاستقلال والاعتماد على نفسه (*vegetative state*). وهنا، يكون احد اهم الاعتبارات لهذا الفريق نوعية الحياة (*quality of life*). هناك ايضاً اعتبارات مرتبطة بالاحوال المادية إذ ان هناك عائلات كثيرة تعاني من ضيق بسبب تكاليف الحياة القاسية، وتأثير القرار على الاخرين وما الى ذلك. فيجد الطلاب الذين يتخبطون بين تلك الافكار انفسهم في وضع متشابك ومعقد ويحاولون ان يدرسوا المسألة الشائكة قبل اتخاذ موقف ما. لذلك كنت امضي وقتاً طويلاً استمع الى افكار الطلاب النابعة عن قلقهم الفكري وأنا أشعر بهم يتخبطون بين آراء متناقضة أحياناً. وكنت دائماً أتأكد من ان الطلاب واعون انه ليس من الاكيد، لا بل من الضروري، ان لا يتفق الجميع على رأي واحد، وان النتيجة تكون ان المواقف لا بد ان تتقارب والنقاش يجب الا يكون حاداً او عدائياً.<sup>(١)</sup>

(١) كنت عند بداية كل موضوع اطلب من الطلاب الاجابة على بعض الاسئلة التي تتناولها، اسئلة تتضمن شرحهم لارائهم. وكنت عند انتهاء الفترة المحددة لدراسة الموضوع اعود وا طرح عليهم الاسئلة نفسها وبعد ذلك، اعطيهم اجاباتهم السابقة وكان الكثير منهم يقول ان اجاباته اختلفت واصبحت اعمق وادق ونابعة عن تفكير منطقي وموضوعي للامور. الاسئلة التي تعطي للطلاب قبل بدء التداول في قضية ما تلعب دورين أساسيين: الأول أنها تهيئ الطالب لولوج الموضوع المطروح. والثاني أن الاسئلة وسيلة تساعد الطالب على اكتشاف مشاعره الأولية تجاه الموضوع وانه يجب دراسة اجابيات أي موقف يؤخذ وسلبياته. الاسئلة الأساسية التي كنت افتتح بها النقاش كانت تتضمن:

- أ - ما هي الأمور التي تحمل قيمة ما بالنسبة لك بما يتعلق بهذا الموضوع؟
  - ب - ما هي الخسائر والنتائج المترتبة على القرارات العديدة التي يمكن ان تنتج عن هذا الموضوع؟
  - ج - اين تكمن التناقضات التي يجب معالجتها؟ وفي النهاية كنت أ طرح أسئلة مثل:
    - ١ كيف تغير تفكيرك إزاء هذا الموضوع؟
    - ٢ كيف تغيرت نظرتك وقبولك لآراء الغير؟
    - ٣ ما هي الأمور التي تشعر أنه يجب أن نتطرق لها ولم نفعل؟
    - ٤ كيف يمكن أن نستفيد مما تعلمناه خلال هذا النقاش؟
- ومن خلال هذه الاسئلة يواجه الطالب الصراع الذي كان في داخله ويكتشف نواحي جديدة لقرارات جديدة.

### ثالثاً: مشروع مع الصليب الأحمر الدولي

طلبت مني لجنة الصليب الاحمر الدولي (*International Red Cross*) ان اعد دراسة لمشروع "القانون الانساني الدولي" (*International Humanitarian Law*) وهو يرتكز على حقوق الانسان في اوقات الحروب وخاصة حقوق العزل والمدنيين منهم اضافة الى معاملة الجنود الأعداء منهم والحلفاء مع محاولة حل النزاعات (*conflict resolution*) بطرق حضارية محايدة تستبعد العنف لانه يولد العنف، وكما قال فيلسوف اللاعنف غاندي: "اذا اتبعنا مبدأ العين بالعين انتهى بنا المطاف الى عالم اعمى". كانت هذه فرصة اخرى أستغلها لهدفين، الأول تثقيفي وهو تعريف الطلاب بحقوق المواطنين واللاجئين والمحاربين وتعريفهم ايضاً بالمؤسسات التي تحاول حل النزاعات بين الدول. والثاني تربوي (*educational*) وهو محاولة تنمية روح التسامح والاحترام والتفهم والايمان بأن حل النزاعات يمكن ان يكون بطريقة سليمة تقلل من عدد الضحايا. وفي هذا المجال ايضاً اتبعت طريقة النقاش والجدل البناء على نهج سقراط، وكنت أشبه بمحاور يحاول ان يساعد الطلاب على استنباط القيم والمبادئ التي تساعدهم في تحويل المواقف المبنية على الكراهية والعنف الى مواقف اقل حدة وعنفاً واكثر احتراماً للأخر لتحقيق هذا الهدف. وكنت استعين بمواضيع مستقاة من الجرائد المحلية والعالمية والمجلات التي تعالج قضايا معاصرة اذ يشعر الطالب ان له صلة مباشرة بهذه المواضيع. بالاضافة الى ذلك، عرضت صوراً حية لمواضيع الساعة بما فيها من ضحايا وخراب وآلام بشرية. كنت ايضاً أعرض صوراً لبعض المواقف الانسانية بالتركيز على ردات الفعل الانسانية التي تنبثق من خلال الصور، صور فيها قهر وعذاب يطوف على وجوه الضحايا وكان ذلك كفيلاً بأن يغير نظرة الطلاب ومواقفهم.

هذه الطريقة الواقعية كفيلة بقلب المفاهيم واحياناً اخرى نمو نوع من التعاطف يقوي شعور الانسان مع الآخر. مثلاً كنت اسأل الطالب ان يعطي رأيه حول مدى استعداداه ان ينقذ شخصاً آخر في وضع خطر حتى لو كان ذلك يشكل نوعاً من الخطر على حياته. من الطبيعي ان تتنوع الاجابات بين الاصرار على الانقاذ او على عدم الانقاذ. وهنا تكمن قدرة المربي الذي يستطيع ان يرى من

خلال ردة فعل الطالب اذا كان صريحاً في اجابته ام انه كان يحاول ان يلفت الانظار الى كونه بطلاً مستعداً ان يواجه الخطر من اجل الغير. هنا كان من الضروري، وبسرعة، ان اضع الطالب امام مواقف حساسة لاجعله، ولو من غير ان يكون مدركاً، يفصح عما هو رأيه الحقيقي من دون ان يفكر برأي الآخرين به. ومن الناحية الثانية كنت احاول من خلال طرحي وضعا افتراضيا شائكا ان اجعل الطالب يشعر مع الآخرين من خلال التفكير ان هذا الآخر الذي يحتاج الى مساعدته قد يكون احد افراد عائلته. على اي حال، كان النقاش كله مرتكزاً على مبدأ حقوق الانسان وكى اتحاشى التلقين السافر، وبعد عرض عدد من الحوادث والامكانيات ومناقشتها في الصف، ينقسم الطلاب الى مجموعات عليها ان تضع لائحة لحقوق الانسان كما تراها. وفي فترة لاحقة اعلق امامهم على الحائط نسخة عن لائحة حقوق الانسان الصادرة عن الامم المتحدة (*Universal Declaration of Human Rights*) فيكتشفون عندئذ انها ليست مجرد لائحة اتفق عليها، بل انها حكيمة وعادلة وفيها الكثير من النقاط التي يؤمنون بها.

خلال الحديث عن حقوق الانسان والعنف السائد في العالم ، اتفق بعض الطلاب على أن العنف نتيجة حتمية لكون الانسان ذا طابع سيئ بالفطرة . هنا، كنت أحاول أن اجعلهم ينظرون إلى اعتقادهم هذا بنقد شديد مرتكزة على أسئلة تتعلق بهم شخصياً وبالأشخاص الذين يحبون، فكان البعض منهم يغير رأيه قائلاً إن الانسان قد يكون جيداً بطبعه ولكن المجتمع أفسده، وهذا في الحقيقة أساس فكر (*J. Jacques Rousseau*) كما طرحه في بداية كتابه "العقد الاجتماعي" (*The Social Contract*)

كنت أيضاً أتطرق إلى أفكار المفكر الفيلسوف الايطالي (*Machiavelli*) كما عرضها في كتابه "الأمير" (*The Prince*) وهي أن الغاية تبرر الوسيلة . تبين لي، ومع أنني لم أفاجأ، بأن الأكثرية الساحقة من الطلاب يؤمنون أن العالم لا يمكن أن يكون إلا عالماً مكيافلياً وأنه لا مكان لوجود أي انسان يحاول اتباع فلسفة أخرى لأن العالم يدور حول رغبة البشر بالوصول إلى السلطة، وكأن أفكار

نيتشه (Nietzsche) اجتاحت أفكار البشر السريع التأثر. أعود وأعرض لهم فكرة هذا الفيلسوف في طريقة نقدية مرتكزة على أن السلطة هدف بحد ذاته وإن الإنسان الأخلاقي مجرد مخلوق بشري بسيط وربما تافه. فكانت هذه حافزاً فعلاً يضعهم في حالة تفكير مشككة لأفكار الفلاسفة "الواقعيين" كما لقبوهم. في نهاية النقاش، أصبح التلامذة يعبرون عن احترامهم للإنسان الخلق والذي يتصرف على أساس احترامه للغير ولحقوقه بعد أن كانوا يعتبرون هذا الإنسان في أشد البساطة وأحياناً "الغباء". هذا لا يعني أنهم خرجوا مؤمنين أن الأخلاق هي الطريق الأنسب لدخول معترك الحياة، إلا أنهم باتوا منفتحين على ذلك. ثم كنت أنهي النقاش بسؤال قد سئلته عندما كنت تلميذة في صف الأخلاق التطبيقية: "هل يمكن أن نكون أخلاقيين في عالم لا أخلاقي؟" فيحاول الطلاب معالجة هذا الموضوع منفردين ومناقشته في الصف التالي.

وفي مرحلة ثانية، عند طرح موضوع حقوق الطفل والواقع المشين الذي نعيش فيه حيث يجند الأطفال، كنت أيضاً أعرض حقائق كنت قد جمعتها من مصادر مختلفة أو قصصاً ووقائع احضرها الطلاب، ثم يحاول كل منهم أن يشرح اقتراحاته. في نهاية الصف، كنت أشعر أن الطلاب قد اقتبسوا نوعاً من الثقة بالنفس وبارائهم.

أما النقطة الثانية التي ارتكزت عليها فهي عرض لأفكار الفيلسوف كانط (Kant) فيما يتعلق بالإنسان وكرامته وضرورة معاملته كغاية بحد ذاته (end in himself) وأنه لا يجوز استغلاله لأي سبب كان، كما لا يجوز أن تسلب منه كرامته مهما كانت الظروف والأسباب. من الجدير بالذكر هنا أنه، في بادئ الأمر، كان الطالب ينظر إلى أفكار كانط نظرة ناقد إلى إنسان بسيط ومثالي لا مكان لأفكاره في الواقع. ومع الوقت، تبين للطلاب أن هذا الفيلسوف وغيره من الفلاسفة المثاليين لا يعيشون في أبراج عالية فوق الغيوم، بل إنهم وصلوا إلى حقيقة أعمق من تلك التي تحجبها أمور الحياة الواقعية والظروف القاسية. فلم يعد كانط في نظرهم ذلك الفيلسوف الحالم المخطيء في اعتقاده أن الإنسان "جيد بطبعه" والبسيط في إيمانه بالسلام الأبدي (perpetual peace)، ولكنه أشبه بمنارة

تدل البشر على الطريق الذي ان التمسه الانسان ساعد الآخر على التماسه، وهكذا يمتد الطريق من إنسان إلى أخيه الانسان، وهو الذي يجعل العالم احسن واقل عنفاً لان القدرة على التمييز بين الخير والشر فطرية كما هي قدرات العقل على الخلق والاستنتاج. فبالنسبة لكانط، كما يقبل الانسان مبدأ السببية داخل الكون، فهو قادر ان يبلغ القانون الاخلاقي (*Moral Law*) في ذاته، فهذا القانون هو الضمير<sup>(٧)</sup>.

عندئذ يخرج الطالب من الصف مختلفاً بعض الشيء اذ إنه لم يعد تحت رحمة رأي الآخرين فيه كما انه اصبح مختلفاً في افكاره وقناعاته التي، وإن بدأت تذوب في نوع من المثالية، اصبحت ذات نظرة مختلفة للواقع ناقدة للشر والاستغلال، نظرة متجهة نحو ما هو مثالي وواقعي في آن واحد. وهذا بنظري نوع من الانجازات التي حققتها من دون ان العب بأفكار الطلاب مطعمة اياها بنظريات فرضية لهذا الفيلسوف او ذلك. وهكذا يتكون عندهم تفكير خاص وجديد مستنبط من نظريات الفلاسفة بأسلوبهم الخاص دون نقل او تقليد او قوالب جاهزة: ليس من الضروري ان يكون العنف والشر والسيطرة أسياد الموقف بل ان للأخلاق دوراً مهماً يمكن العمل على اساسه.

### رابعاً: ورشات عمل حول التربية الاخلاقية

بالاضافة إلى إعطائي الدروس التي من خلالها يكتشف الطالب القيم والمبادئ كما اكتشف ذلك سابقاً تلاميذ سقراط المعلم محاولةً اتّباع نهجه الجدلي الذي يؤمن بدور المربي الذي هو أشبه بالقابلة، فلقد قدّمت دورات تدريبية أو ورشات عمل (*workshops*) تحت عنوان "تعليم القيم" (*Values in Education*) من خلال المنهج لمساعدة نمو شخصية الطالب. كان المشتركون من الأساتذة والمدراء في المدارس الخاصة والرسمية، وكلهم عبّروا

(٧) من اشهر ما قاله الفيلسوف كانط "شئان لا ينفكان يملآن قلبي بالاعجاب والاحترام، ويزداد فكري تعلقاً بهما وتطبيقاً لهما: السماء المضاءة بالنجوم فوق رأسي، والقانون الاخلاقي في داخلي".

"Two things fill my mind with ever increasing admiration and awe; the stary heavens above and the moral law within"

عن المشاكل التي يواجهونها في المدرسة والتي هي في النهاية انعكاس للمشاكل التي أصبحت شبه دائمة في مجتمعنا.

واللافت للنظر كان حماس المشاركين كلهم وقناعتهم بأن المجتمع اليوم يعاني من مشاكل عديدة تنعكس في المدارس وأنه من الصعب التعامل معها . عندما بدأت ورشة العمل كنت قلقة من أن يكون الموضوع مملأً أو ألا يستحوذ علي اهتمام المشاركين كثيراً ولكنني سرعان ما شعرت أن كل المشاركين أصبحوا جزءاً من الورشة وهم يشاركون بحماس وصدق في إبداء آرائهم وعرض تجاربهم وإظهار أملهم بالوصول إلى طريقة يمكن بها الحد من هذه المشاكل، أي طريقة يمكن من خلالها إعادة صقل قيم الطلاب . لقد عرضت لهم شريطاً وثائقياً يتخلله تحليل للمشاكل التي كانت تواجهها المدارس في الأربعينات والمشاكل التي تواجهها الآن . وهنا كانت المفاجأة ، فالمشاكل التي كانت تعتبر خطيرة ومهددة للمجتمع منذ سنوات كان أهمها الكلام من غير إذن، الركض في القاعة، رمي النفايات، مضغ العلكة في الصف، وهذه تبدو بسيطة جداً حين نقارنها بمشاكل هذا العصر، لا سيما في البلاد الصناعية، التي تشمل المخدرات والكحول والانتحار وعمليات التخريب. في نهاية الدورة، خرجنا باقتراحات عديدة كمقدمة لمعالجة هذه المشاكل والحد من تفاقمها وقد تضمنت:

- تدريب المربين واطلاعهم على أحدث الأبحاث والأفكار التي تتعلق بضرورة صقل القيم والتركيز على أن دور الأستاذ يتعدى كونه مدرساً ليصبح مربياً ومثالاً يحتذى .

- لفت نظر أساتذة المواد كلها إلى إمكانية تعليم القيم من خلال هذه المواد وإعطائهم أفكاراً تضعهم على الطريق السوي .

- محاولة إدخال مواضيع القيم والمبادئ في برامج التربية المدنية .

- تحريك المؤسسة التربوية بأعضائها كافة من أساتذة وموظفين .

- تثقيف الأهل لكي يلعبوا دوراً في مساعدة المربي للوصول إلى الهدف المنشود . وقد يكون هذا من خلال محاضرات أو ورشات عمل، والتركيز على ضرورة مراقبة ما يشاهد أطفالهم من الأفلام وألعاب الفيديو والكومبيوتر .



- استعمال وسائل الإعلام لل غاية الأساسية وهي التوعية الأخلاقية .
- اصدار نشرات تعالج هذا الموضوع .
- مشاركة المجتمع بأكمله والدولة كذلك .
- إنشاء برامج توعية وإرشاد وخدمات اجتماعية في المدارس .
- حتّ الدولة على إنشاء مراكز للترفيه تكون مدروسة و موجّهة .

لا تقتصر المشاكل الأخلاقية والاجتماعية على المدارس التي تنتهج الأسلوب الليبراليّ في التعليم ، فعلم السيكولوجيا بدراساته الجديدة وجد أنّ المشاكل نفسها تظهر في مدرسة أخرى اختارت أسلوب القمع الصّارم ، فهذه وتلك لها الاستعداد نفسه لخلق ثورة في المجتمع والتمرد على كلّ القيم. الهدف ، كلّ الهدف ، استنباط موازنات في العقوبات والأنظمة دون فوضى أو استبداد .

### خاتمة

في النهاية لا بدّ لي أن أشير الى بعض الصعوبات التي واجهتني في استنباط القيم وصقلها من خلال الدرس . كم مرّة تشعبّ الدرس وخرج الموضوع عن محوره ، بسبب استطراد الطلاب المتكرّر<sup>(٨)</sup>.

كان هناك حاجة دائمة إلى مرونة خاصّة لأعيد الدرس إلى محوره المقرّر وسط ردود فعل طلابية تحاول التقلّت إلى مواضيع أخرى، هذا بالإضافة إلى ظهور عنصريّة فكريّة ودينيّة موروثة ، تؤدّي إلى بروز مشروع ثورات داخل الصف، والطريقة الفضلى التي ارتأيتها لهذه المواقف المتوتّرة كانت تحديد وقت لمناقشتها بشكل منطقيّ بروح رقيقة من الزمالة والودّ .

(٨) مثلاً حين بدأنا بعرض الاعتبارات الملائمة طرح موضوع الدين كاعتبار ، عندئذ بدأ الطلاب يناقشون مسألة جديدة وقائمه بذاتها وهي مسألة وجود الله.

وكم كان شعوري بالارتياح والفرح يكبر عندما كان يخرج الطلاب في نهاية الصف مكمّلين النقاش في الموضوع نفسه بروح رياضية عالية ، أو عندما أقابل تلاميذ آخرين يسألونني إن كان بإمكانهم حضور صفوفي ، أو حتى عند حصول تغييرات مفاجئة في الآراء نتيجة الاقتناع. لم يكن عملي لينتهي عند انتهاء الساعة المحددة للدرس بل كان هناك، وعبر مكتبي، جسر من الاتصالات والاستفهامات لفقرات كانت غير واضحة ومستعصية أحياناً .

كان السؤال الذي يطرحه سقراط دائماً هو ما هي "الحياة الجيدة" او الخيرة (the good life) أو الحياة التي هي جديرة بأن تحيا. كانت ولا تزال الإجابة على هذا السؤال السهل والصعب في آن واحد تعود دائماً إلى فكرة القيم التي تشكل أساس "الحياة الجيدة" .

سابقاً اتّهم سقراط بتحريض النشء واتّهم كانط بالمثالية المطلقة البعيدة عن الواقع. نظرتي للتربية وتجربتي فيها تشكّلان في نظري تبريراً لهذين الفيلسوفين. فأنا أقر بصلاح فلسفتهما، مقتنعة بأفكارهما. فإنّ نظرتنا للتربية يجب أن تكون صحيحة وإنه من ثمّ، مهما كانت العوائق التي تقف في الطريق، فتحقيقها ليس محالاً.

ليس من الضروري أن نكون برغماتيكين فقط لأننا في العصر الحادي والعشرين و لا أعتقد أن المثالية هي نتيجة خيال وهمي وحالم بل هي ، في النهاية، الخطوة الأولى على طريق واقعية ضرورية وبتأه.